الفصل الأول

الدعوة الفردية

- تعريفها
- مميزاتها
- أثرها
- آدابها

OBEIKAN.COM

OBEIKAN.COM

الدعوة الفردية

تعريفها

هي ما كان الخطاب فيها موجهًا إلى شخص واحد أو إلى فئة قليلة من الناس (وليست اجتماعًا بالمعنى المفهوم). وغالبًا ما تقع عن غير ترتيب مسبق. ومثلها لقاءات المصادفة، وجلسات المجالس، ومناقشات الزملاء في العمل، وحلقات البحث.. ونحوها.

مميزاتها

* أنها كثيرة الحدوث: فقد تتفق للإنسان مرات في اليوم الواحد.

* وأنها عابرة: لا تحتاج إلى جهد ولا إعداد، وقد تكون خلال عمل آخر فلا تأخذ وقتًا خاصًا. كالذي يكون في حفل عزاء أو عيادة مريض أو التهنئة بمولود.

* وأنها يسيرة: ليس فيها التوتر والتحفز الذهني الذي يكون في الحفلات العامة ولا المجالات الكلامية المجهزة. ويستطيع الداعية أن يكون فيها محررًا من كل قيود النقد.

* وأنها سهلة: يستطيع الإنسان ويستطيع كل مؤمن بدعوته أن يشارك فيها ولو كان أميًّا أو من غير أهل هذه الصناعة. بل هي حقل جيد للتدريب واختبار المواهب فكأنها التجربة للميدان الكبير.

* وأنها مستورة: تحمي الداعية من الرياء والسمعة. فكثيرًا ما يصاب الخطباء بمرض «الميكروفون» وداء «الصدارة».

* وأن فيها فرصة للتنفيس: حيث يبدي كل واحد ما عنده من وجهات النظر، فكثيرًا ما يستمع الإنسان إلى قضية جديدة بالنسبة إليه، ثم يعرض له سؤال هام، ولا يجد في المجال العام من يرد عليه. فيبقى مشغولًا به معرضًا عما يتلوه إلى أن يفهم تلك النقطة التي ساورته من قبل.

* وفي الحديث الحر: فإن المرء يستطيع أن يعرض ما عنده من شكوك أو تساؤلات وأن يأخذ ويعطي بحرية كافية. وهذا ولا شك أجدى وأنفع، فضلًا عن أنه ينشئ الصداقة والمودة بين الداعية وبين من يتصل بهم على هذه الطريقة.

OBEIKAN.COM

* وفيها دوام الإمكانية: فإنه خلال أحلك العصور التي مرت بالشعوب.. لم تتوقف الدعوة المحدودة، بل زادت ونشطت وكأنها التعويض عن الكبت الذي تباشره السلطات أحيانا. لأنها حديث النفس لنفس أخرى تعاني مثل ما تعاني تلك. وهو ما تعجز كل قوى الظلم عن السيطرة عليه.

* وفيها من بركات النبوة: لأن الأنبياء صلوات الله عليهم بدأوا بها ولم يتوقفوا عنها، بل كانت من أساليب حياتهم على الدوام.

أثرها

وقد يبدو لأول وهلة أن الدعوة الفردية بطيئة الأثر قليلة الإنتاج، ولقائل أن يقول إنه في المجتمعات الوفيرة العدد، ذات الحاجات الملحة للإصلاح، لا يتهيأ للملايين أن تصلها الفائدة المأمولة بواسطة الدعوة المحدودة.. هذا حق، لكنه مع التسليم بضرورة الدعوة العامة – متى تيسرت أسبابها- تظل الدعوة الفردية هي الأساس- في النجاح للمدى الطويل، وأن الذين تفاهموا على المستوى الفردي المطمئن هم دائما ركائز الدعوات، وهم الأدوات الفعالة في كل الحركات الإصلاحية التي ظهرت عبر القرون ومثلهم كمثل الحواريين – أتباع الأنبياء- وكمثل تلاميذ الزعماء المصلحين. وما أشبه الدعوة الفردية بالأساس الذي يقوم عليه البناء مع أنه الجزء المدفون تحت الأرض، ومثل الدعوة العامة في أثرها كمثل البناء ذاته- فلا يستغني كلاهما عن الآخر.

على أن الدعوة الفردية ليست بطيئة الأثر على كل حال، فربما كانت في بعض الظروف أسرع تأثيرا من الدعوة العامة وأسلم عاقبة منها.

آدابها

قلنا إن الدعوة الفردية شديدة الحساسية، لأن التعارف فيها أدق، والهروب من معقباتها أشق.

وكثيرا ما يسيئ الداعية من حيث يظن أنه أحسن، فليس كل من أوتي طلاقة اللسان أجاد البيان، ولا كل من أجاد البيان نجح في الإقناع، ولا كل من نجح في الإقناع أثمر عملًا نافعًا.

OBEIKAN.COM

إن تحويل طاقات البشر إلى الاتجاهات الخيِّرة أمر بالغ الصعوبة، لأن النفوس بفطرتها تنزع إلى الجوانب الأخرى.. والمرء يتأثر بالعاطفة كما يتأثر بالعقل. ولهذا نوصي – في هذا الباب – بملاحظة ما يأتي:

١ـ الأناة والتلطف:

لأن نفوس الآخرين بالنسبة لنا كالكهوف المجهولة ولابد من الكشف عن بعض دروبها، ومعرفة مكنوناتها من خير أو شر.

ولهذا يلزم للداعية أن يتعرف على ما عند الآخرين، قبل أن يفاجئهم بما لا يعرف أثره.. نعم إن صاحب الدعوة عنده الجديد الغريب على أكثر الناس، وعنده ما لا يعجبهم ولا يطيقونه، ولابد له من الاختلاف معهم أحيانا. ولكن علينا أن نتبين طبيعة الأرض قبل أن نحرث فيها حرثًا أو نبذر فيها بذرًا.

فقد يكون ترك بعض الحقول أجدى من العمل فيها – قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾[الأعلى: ٩]. وقال أيضا: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام: ٥١].

٢ـ توفير الاحترام للآخرين:

يلزم توفير الاحترام للسامعين ولو كانوا على غير رأينا – فإن قضية الرأي تختلف عن قضية الكياسة والمجاملة «واختلاف الرأي لا يفسد للود قضية»، فينبغي أن تسمع من الجانب الآخر بقدر ما تحب أن يسمع منك. وأن تنقد ذاتك في نفس اللحظة، وتتساءل: هل أنت كثير الكلام؟ عالي الصوت؟ شديد الحمق؟ جارح اللفظ؟ مستعل بعلم؟ فإن أحسست بشيء من ذلك فعليك أن تعدل من طريقتك فورا – ولو بالاعتذار – وتعود إنسانا طبيعيًّا، حتى لا تثب عليك الشخصية المتربصة من الجانب الآخر، وتتحول المسألة إلى صراع على غير الموضوع بل على الذوات.. وإذا حصل ذلك فسيتدخل المال والجاه والمركز في المعركة، وستدخل معكم السيارة والعمارة والإدارة.. ثم الشيطان.

أما إذا التزمت المنهج العادل، وأدب البحث، وتواضع العلماء، فقد قطعت الطريق على مقتضيات الخلاف.. ويبقى لصاحبك إما أن ينزل على رأيك أو يفارقك وهو لك شاكر أو عاذر.. بل ربما دعاك بنفسه إلى اللقاء الثاني.. وذلك هو المطلوب.

٣ـ دراسة المحيط:

شاءت إرادة الله أن تتوزع المعرفة على أقطار الأرض وعلى عقول الملايين بأشكال متعددة «وعند كل قوم علم» فما يصلح لقوم لا يصلح لآخرين. ولهذا كان الدين ميسرًا وفيه مرونة كافية لكي يلائم الأزمان.. فلا يظن أحد أن الحق له وجه واحد.. كلا، فالحق واحد ولكن يُرى من وجوه متعددة، ومن زوايا كثيرة، و كلما اتسع العلم، كلما زاد الاختلاف بين الناس، قال تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ﴾[الجاثية: ١٧]..نعم إن العلم يحل إشكالات تتعلق بالجهل ومع ذلك فهو يوجد إشكالات تتصل بالعلم نفسه. لذلك كان لزامًا على الداعية أن يمارس هذا الفن باستمرار، وأن يداوم الاتصال بالناس والأفكار التماسًا للمعرفة من كل باب محتمل، وإذا وُضِع في بيئة جديدة فعليه أن يصبر فترة سكون، تطول أو تقصر، حتى يتبين معالم تلك البيئة، ويعرف مفاتيح التحويل فيها.. وإلا أصيب بصدمات شديدة، تعود بالضرر عليه أو على دعوته.

٤ـ الانشغال بالمهم:

إن للفكر الإنساني أبوابًا أساسية يمكن أن تختصر الطريق وتوفر الوقت.. فإذا عرف الداعية مفاتيح البحث الأصلية يمكنه أن يفيد ويستفيد.. فمثلًا تريد أن تتحدث في الإسلام وأساس التفكير في هذا الموضوع هو الإيمان بالله وبالغيب والتصديق بالمنقول ثم الإدراك بالمعقول، فإن كان المخاطب لا يؤمن أساسًا بهذا كله، فيلزم ترك المناقشة – والدخول إلى الموضوع من باب آخر، وكذلك الحال في شخص يؤمن بزعيم يحبه أكثر من إيمانه بالحق أو بالمصلحة العامة، فيلزمنا إذا اتضح لنا ذلك – أن نختصر معه الحديث، حتى تتهيأ فرصة أنسب لاستدراجه إلى ما تريد– دون البدء بهدم صنمه – ومتى استطعت أن تذوقه جمال الحق ولو مع إقامته على الولاء لزعيمه، فقد وجدت مفتاحًا إلى قلبه تستطيع بالحكمة والصبر أن تزرع فيه حقك وتنزع منه باطله.

٥- الاعتراف بالحق:

من أدب الدعوة كذلك أن يتمتع الداعية بروح سمحة – أو رياضية كما يقولون- فلا يجوز أن يبت الداعية سلفًا أن كلمته هي العليا وأن المخالف له كافر أو آثم أو جاهل.. كلا... إنما الحقيقة بنت البحث - وكثيرًا ما يحدث أن يأنس الداعية في موقفه ضعفا- فيلزمه حينئذ ألا يكابر، بل يتحين فرصة أخرى لاستكمال البحث، وهذا نور يقذفه الله في قلب من شاء من عباده.

ولابد من التفريق بين الفقة وبين الشريعة:

فالشريعة هي الحق الأصيل الذي لاشك في صحته، أما الفقه فهو ما فقهناه من هذه الشريعة، وطريقة عرضنا له على الناس، أو طريقة قضائنا بأحكامه وهو اجتهاد يحتمل – الحق والخطأ.. ويكون جميلًا ومشرفًا للداعية أن يقبل الهزيمة، أو يتظاهر بذلك، ثم يؤجل البحث حتى يستكمل ما خفي عنه وحتى يتبين وجه الحجة فيه، فالداعية يأخذ كما يعطي، وليس الداعية قدرًا مسلطًا على المخلوقات.

٦- نتعاون فيما اتفقنا عليه:

ومن الحكمة أن يحاول الداعية أن يجني ثمرة المناقشة إذا وصل إلى درجة من النجاح، فإنما التفاهم وسيلة لشيء آخر – هو العمل.. وليس هدفًا في ذاته.. فمن الممكن والحكمة أن تعمل على إنشاء صلة أو قرابة فكرية بينك وبين المخاطبين.. تصلح أن تكون أساسًا للتعاون المقبل.. فمثلًا.. أنت تراه يفكر على أساس قومي بينما أنت تفكر على أساس ديني.

ولكنكما جميعًا في حاجة إلى التخلص من عدو واحد، هو الذي طغى علينا بوسائله الفكرية والمادية، وأن عملية التخلص من ذلك العدو هي في الواقع أثقل من مسألة الخلاف في الفروع، فما الذي يمنع من الاتفاق على التعاون في هذا النطاق؟ ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٤].

OBEIKAN.COM

٧- ترك الحرص:

قد يكسب المتكلم موقفًا خطابيًّا أو سياسيًّا يتحدث به إلى الناس، لكنه في سبيل حرصه على هذا الربح قد يحدث جرحًا خفيفًا أو عميقًا في مشاعر الآخرين، فلا تلبث هذه المكاسب أن تتحول إلى خسائر، وليس أولى بالرعاية من قلوب الناس التي لو صلحت صلح الجسد كله، وخير ما يؤثر فيها هو شعور الحب والإيثار، فلا ينبغي للدعاة أن ينفروا المستمعين بما يثقل عليهم.. ولا يكثروا عليهم المجادلة ويلزموهم التسليم – كما لا ينبغي للدعاة أن ينشغلوا بالحرص على نتيجة ما.. فالدعوة لله، والله غني عن العالمين.

أنت لا تفتح حوارًا مع إنسان إلا إذا توقعت أنه ربما يقتنع برأيك – وهو لا يدخل معك في حوار أيضًا إلا على مثل ذلك – ولكن إذا ثبت أن أحدكما لا يقبل التحول عن رأيه ولا يقتنع بالحق إن جاءه – فما فائدة الحوار؟ ولو قفل باب التفاهم بين الناس لا يبقى إلا الحرب، ولو سمح القرشيون لأنفسهم ولأتباعهم بتفهم الإسلام أول الأمر ما حاربهم رسول الله ﷺ، وكما قال الله لنبيه عليه السلام: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [الحج: ٣٩]

بين البحث العلمي والجدل

وينبغي أن يميز الداعية بين ما هو بحث علمي وبين ما هو جدل ومراء مذموم. فالبحث العلمي: هو الذي تتوفر فيه روح الوصول للحقيقة، بحيث يكون كل طرف في موقف الحياد من القضية المطروحة – وأن يكون حرص الجميع مركزًا على إظهار الحق لوجه الله لا تشم فيه رائحة الذاتية ولا المصلحية ولا التقيد بفكرة مسبقة مع محاولة الدفاع عنها.

ويتوفر فيه معنى التعادل – بحيث لا يكون أحد الطرفين سيدا للآخر ولا قاهرا له بفضل أو سلطان أو سواه، فقلما يتصور وجود التعالي بين جندي في الجيش وبين القائد العام مثلا – أو بين خدم المنازل وأصحابها.

وتتوفر فيه أسباب استكمال مادة البحث – لكلا الجانبين على السواء- فقد يحرم أحدهما من الحصول على المراجع أو المستندات لسبب أو لآخر، وبذلك ترجح كفة من يملك الدليل – رجحانًا ظالمًا للسبب المتقدم.

أما الجدل: فهو الحوار الذي يقوم على غير أساس واضح أو على غير تكافؤ ظاهر –تبرز فيه الأنانية وترتفع فيه الأصوات وتبدو فيه الخصومة- وقد نهى عنه رسول الله ﷺ في مواطن كثيرة منها قوله: «**أنا كفيل ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء ولو كان محقًّا**».

وإذا كان من أهداف الدعاة ربط الناس على المحبة، فالجدل يقضي على المحبة ويزرع البغضاء.

OBEIKAN.COM